12

حريق في الأجمة

في غضون ذلك، وفي الوقت الذي بدأت الأسباب الحقيقية لحربنا في العراق تتكشف بشكل تدريجي في ضوء السباق نحو الرئاسة، والذي بدأ يلوح في الأفق استمرت إحدى حلقات الدراما العراقية في التكشف - وهي قصة الكشف عن هوية فاليري بليم عميلة وكالة المخابرات المركزية كجزء من المعركة الحزبية المتصاعدة بين إدارة بوش ومنتقديه في الكابيتول هيل في وسائل الإعلام. لقد كانت حكاية طويلة بدأت تنال مني شخصياً بشكل متصاعد.

يوم الثلاثاء الواقع في الثلاثين من شهر أيلول، سبتمبر، 2003، وهو اليوم الذي تلا تأكيدي بشكل واضح أن كارل روف لم يسرب أي معلومات سرية أمنية - شخصية فاليري بليم - كان يوم سفر. لم يكن هناك أي لقاء صحفي في البيت الأبيض؛ كانت هناك حوار على متن الطائرة الرئاسية في طريقها إلى قاعدة سان أندروز الجوية، حيث مقر أفضل طائرة معروفة في العالم في شيكاغو.

كان الرئيس يتخذ الوضعية المعتادة الخاصة للتصوير في حفل غداء أقامه مع تشيني من أجل جمع التبرعات استعداداً لتمويل حملة إعادة الانتخاب لسنة 2004 التي تلوح في الأفق. التقى بعدها بمجموعة من كبار رجال الأعمال المحليين وذلك بهدف تسليط الضوء على القضايا الاقتصادية الملحة، وخلق فرص للعمل.

نحو الساعة الثامنة والنصف من مساء الليلة السابقة، أعلمت وزارة العدل مستشار البيت الأبيض آل غونزاليز أن المسؤولين هناك فتحوا تحقيقاً جنائياً حول تسريب هوية فاليري بليم. بناء على طلب آل، ستقوم الوزارة بإرسال خطاب رسمي حول هذا الموضوع يوم الثلاثاء. سأل آل فيما إذا كان البيت الأبيض بحاجة إلى إعلام العاملين فيه مساء ذلك اليوم، أو الانتظار حتى صباح اليوم الثاني. أفادت وزارة العدل أن الصباح موعد مناسب.

منذ أن انتشر نبأ إجراء التحقيق الجنائي في الأيام القليلة الماضية، كنت على تواصل مستمر مع آل ومع نائبه ديفيد ليتش، بما في ذلك صبيحة ذلك اليوم قبل أن أغادر البيت الأبيض برفقة الرئيس. أردت التأكد من أنني على تواصل على مدار الساعة مع وزارة العدل، كما كنت بحاجة إلى نصيحة من آل حول كيفية الإجابة على أسئلة الصحافة عن الموضوع.

أبلغ آل جميع كبار الموظفين بموضوع التحقيق قبل الساعة السابعة والنصف بوقت قليل أثناء اجتماعنا اليومي بينما كنا جميعاً جالسين في المقاعد الجلدية المخصصة لنا حول طاولة المؤتمرات المصنوعة من الخشب، والممتدة على طول قاعة روزفلت. وجّهَنا إلى ضرورة أن يقوم كل منا بإعلام أفراد الطاقم العاملين لديه المحافظة «على المواد كلها التي يمكن أن تكون لها علاقة بموضوع» التسريب، وقال إن «الرئيس وجّهَ إلى ضرورة التعاون بشكل كامل مع هذا التحقيق». قال آل أيضاً إن مذكرة سوف تعمم بواسطة البريد الإلكتروني على العاملين في البيت الأبيض كلهم نحو الساعة الثامنة والنصف تتضمن تعليمات محددة.

أوضح آندي كارد أن الرئيس أراد أن يصل إلى حقيقة هذه المسألة، وأن على العاملين في البيت الأبيض أن يدلوا بالمعلومات ذات الصلة إلى وزارة العدل. كان صمت مطبق يلف القاعة بينما أنصت جميع من فيها بعناية إلى ما كان يقوله كل من آل وآندي.

تحدثت إلى الرئيس حول هذا التطور الجديد في قضية التسريب صباح ذلك اليوم في المكتب البيضاوي، كما تحدثنا حوله أيضاً في الرحلة الجوية القصيرة على متن طائرة الهيلوكبتر البحرية الرئاسية من المنطقة العشبية الجنوبية في البيت الأبيض إلى قاعدة أندروز الجوية. اتفقنا، الرئيس، ودان بارتليت، وأنا، على وجوب أن يدلي الرئيس بتعليق حول التحقيق، خصوصاً وأننا أُخطِرنا الآن رسمياً بشأنه.

أثناء الحوارات التي جرت في الطائرة الرئاسية، أحطت طاقم الصحفيين علماً بالمذكرة التي وجهتها وزارة العدل إلى آل. كنت قد تحدثت مسبقاً إلى بعض الصحفيين

صبيحة ذلك اليوم قبل مغادرتي البيت الأبيض وكان الجميع قد تسلموا نسخاً من المذكرة التي أرسلها آل إلى كل العاملين.

الطاقم الصحفي هو عبارة عن مجموعة صغيرة من الصحفيين الذين يغطون تحركات الرئيس عندما لا تكون هناك أمكنة كافية لجميع الصحفيين، أو عندما تتطلب عوامل لوجستية ذلك. هناك في العادة خمسة عشر من الصحفيين في الطاقم، ويمثل هذا عدد المقاعد المخصصة لهم في الطائرة الرئاسية. يجلسون عادة في الجزء الخلفي الأيسر من الطائرة وراء القسم المخصص للعملاء السريين مباشرة. توجد ثلاث نقاط مخصصة للخدمات الطباعية السلكية، بما في ذلك وكالة الأسوشيتد برس، ووكالة رويترز، ووكالة أخبار بلومبيرغ. هناك أيضاً نقطة مخصصة للمشرف على الطباعة الذي ينتمي عادة إلى إحدى الصحف الكبرى التي تعمل على تحقيق سبق صحفي. توجد نقطة مخصصة لمراسل إحدى الإذاعات، وأخرى مخصصة لصحفي في مجلة إخبارية (من تايم، أو نيوزويك، أو يو. إس. نيوز، أو ناشونال جورنال)؛ وهناك نقطة مخصصة لأحد مراسلي النقل المباشر أو لأحد المخرجين، واثنتان للشبكة التي يتبع لها المصور ومهندس الصوت؛ أما النقاط الأخرى فهي مخصصة لمصوري الكاميرات الثابتة. كل ما يقومون بتغطيته يجب أن يتم الإطلاع عليه في أقرب وقت ممكن من قبل الطاقم الأكبر في البيت الأبيض.

استناداً إلى ما اتفقت بشأنه مع الرئيس في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، أنهيت تعليقاتي الافتتاحية الموجهة إلى الطاقم الصحفي المرافق بالقول: «إن الرئيس يريد الوصول إلى حقيقة هذه المسألة مثله مثل أي شخص آخر، وهو يؤمن بضرورة متابعة الموضوع حتى نهايته، كما قلت لكم بالأمس. كان الرئيس يعبر دائماً عن قلقه بشأن تسريب المعلومات السرية، وهو فعل يعتبره الرئيس مسألة خطيرة ويجب أن ينظر إليها بمنتهى الجدية. يتوقع الرئيس من كل فرد في هذه الإدارة أن يلتزم بأعلى معايير السلوك المهني». أضفت قائلاً إن الرئيس يؤمن «أن أي شخص لديه معلومات تفيد هذا التحقيق، يجب عليه التقدم بها إلى وزارة العدل».

بعـد انتهاء الرئيـس من الاجتماع في شيكاغو، تمت مرافقـة العصبة الصعبة المراس المكونة من مجموعة صحفيي البيت الأبيض، والصحفيين الذين يمثلون الصحافة المحلية إلى غرفـة صغـيرة حيث كان سيجري فيهـا نقاش حول طاولة مستديـرة. جلس الرئيس في الوسـط، محاطاً بكبـار رجال الأعمال المحليـين، وإلى جواره كان العمـدة ديلي الذي نشـأت بينهما علاقة جيدة تطورت على مدار الأيام. بـدأ الرئيس بالإدلاء بتعليقات حول الاقتصـاد. ثم قال إنه سيتلقى سـؤالاً أو اثنين. كنت قد رشحت له اثنين من الصحفيين، وأحطته علماً بالأسئلة التي يحتمل أن يطرحاها عليه.

حصـل ديب ريكمان، الصحفـي الذي يغطي أخبـار البيت الأبيض لوكالـة أسوشيتد برس على الفرصـة الأولى. سأل الرئيس: «هل تعتقـد أن وزارة العدل يمكن لها أن تقوم بتحقيـق حيادي، آخذين بعين الاعتبار المضمونات السياسية لتسريب معلومات عن وكالة المخابرات المركزية، ولماذا لا يكون محقق خاص أفضل لهذه المهمة؟»

أجـاب الرئيس: «هنـاك تسريب للكثير مـن المعلومات السريـة في واشنطن. إذا كان هنـاك تسريب من قبل أشخاص يعملـون في إدارتي، فإنني أريد أن أعرف من هم هؤلاء. وإذا كان ذلك الشخص قد خالف القانون، فسيتم التعامل معه بالشكل المناسب». أضاف أنـه يثـق في خبرة المسؤولـين في وزارة العدل المنتدبين لمتابعة هـذه التحقيقات، وأنه وجّهَ إدارته إلى التعاون معهم بشكل كامل.

نادى الرئيس بعدها على بوب كيمبر؛ بما أننا كنا في المدينة التي تصدر منها الصحيفة التـي يعمل بهـا. غطى بوب أخبار البيت الأبيض لصالح صحيفـة شيكاغو تريبيون، كما قام بتغطية أخبار الرئيس منذ انتخابات سنة 2000. قال الرئيس: «نعم، دعوني أتذكر، كيمـبر – هـو من شيكاغو، أين أنت؟ هل أنت من مشجعي فريـق «كابس» أو فريق «وايت سوكـس»؟» أعقب هذا السؤال ضحك في الغرفة. أضاف الرئيس: «انتظر لحظة. لا يبدو هذا عادلاً، أليس كذلك؟»

كيمـبر الذي لم تردعه هذه الوخزات غير المؤذية مـن الرئيس، قال: «أُخبرنا بالأمس أن كارل روف ليس له دور فيها...»

قاطعه الرئيس قائلاً: «نعم».

تابع كيمبر قائلاً: «هل تحدثت إلى كارل، وهل تثق به؟»

قال الرئيس: «لا اعرف أن أحداً في إدارتي قد سرب معلومات سرية. ولو حدث وقام أي شخص بتسريب معلومات سرية، فإني أريد أن أعرف ذلك، وسوف نتخذ الإجراء المناسب».

انتهت المهمة. لقد أوضح الرئيس بما لا يدع مجالاً للشك أنه ينظر إلى هذا التحقيق بمنتهى الجدية، وأنه يكره تسريب المعلومات السرية، وأنه يرغب في الوصول إلى الحقيقة حول هذا الموضوع. كما أوضح أن أي شخص في إدارته سيطرد من عمله فيما لو ثبت أنه المسؤول عن هذا التسريب.

لمّحَتِ الحوارات التي جرت في البيت الأبيض صباح اليوم الثاني إلى أن الصحافة بدأت تشير بأصابعها إلى شخص جديد تحوم حوله الشبهات في قضية التسريب هو رئيس أركان نائب الرئيس، سكوتر ليبي.

هكذا بدأت القصة. بينما كنت على وشك الانتهاء من هذه المحادثة، قال لي جون روبرتس كبير مراسلي محطة CBS News في البيت الأبيض: «سؤال أخير. قلتَ منذ مدة بشكل قاطع إنك تلقيت تأكيدات من كارل روف أنه لا علاقة له البتة بهذا الموضوع. هل تلقيت منذ ذلك الحين، تأكيدات مشابهة من رئيس أركان نائب الرئيس؟»

أجبته، وأنا أهم بمغادرة المنصة: «يا جون، لن أستدرج إلى التدقيق في كل الأسماء – فقد أوضحت ذلك مؤخراً – لن أُستدرَجَ إلى الدخول في قائمة لمناقشة اسم كل عضو في إدارة البيت الأبيض».

ناشدني روبرتس بشيء من التهكم الذي أثار بعض الضحك: «إنه اسم واحد فقط».

تابعت: «كان هناك اتهام وحيد ومحدد. وقد قمت بالإجابة عنه في حينه. لكنني لن أستدرج إلى الدخول في قائمة أسماء من على هذه المنصة».

قال روبرتس: «لكنها قائمة قصيرة»، مثيراً بذلك ضحكاً أكثر، في الوقت الذي كنت أخطو خارج الباب المتحرك باتجاه مكتب الصحافة.

obeikandi.com

لم يكـن لـدي الكثير من الوقت كي أقوم بإجراء تقويم نقـدي لتلك المحادثة مع أركان فريقـي في ذلك الصباح. فقـد كان الرئيس الكولومبـي، أوريبي، سيلتقـي بالرئيس بعد مـدة وجيزة. ولمـا كنت أعرف أهميـة الالتزام بالوقـت بالنسبة للرئيـس، قمت بالتقاط دفترملحوظاتـي، وأخـبرت أركان فريقي أننا سنتحـدث أكثر قبل اللقـاء الصحفي؛ ثم مشيـت مسافة نحو عشرين قدماً باتجاه المكتب البيضاوي من أجل الانضمام إلى اجتماع مجلس الأمن القومي قبل اللقاء مع الرئيس وقبل اجتماعه مع أوريبي.

بعـد دخولي إلى منطقة المكتب البيضاوي مباشـرة، صادفت سكوتر ليبي في طريقي. كان غالبـاً مـا يمثل نائب الرئيس في اجتماعات الرئيس مع قـادة الدول عندما لا يحضر تشيني، وكنا غالباً ما نجلس إلى جانب بعضنا بعضاً. ولما كنا قد وصلنا باكراً، سألته فيما إذا كان بإمـكاني التحدث إليه لبرهة. خرجنا سويـة عائدين باتجاه المدخل الذي يوصل بين منطقة الموظفين المشرفين على المكتب البيضاوي وبين منطقة الانتظار في الرواق.

قلـت: «يجـب أن تعرف أن الصحافة بدأت تطرح أسئلة أكـثر، حولك، وفيما إذا كنت أنت من سرب اسم فاليري بليم».

أصغى سكوتر باهتمام. تابعتُ قائلاً: «قلت لهم إنني لن أستدرج إلى الدخول إلى قائمة بأسماء موظفي البيت الأبيض، لأجيب فيما إذا كان أي موظف متورطاً في التسريب. أريد منـك أن تعرف لمـاذا. طالما أن هناك تحقيـق وشيك، لا أستطيع أن أضـع نفسي في هذا الموضع. أريد أن تعلم أنني لا أحاول أن أتركك تتعرض لسهامهم».

عـبر سكوتـر عن تقديره لإعلامي إيـاه قبل وقت كافٍ؛ ولكنه أضـاف شيئاً آخر. كان يبـدو مرتاحاً لموقفي بالرغم من أنه لا يشعر هـو، أو أي شخص آخر مكانه بالسعادة من هـذا الموقـف. لكنني شعـرت أنني قمت على الأقـل بفعل ما كان عليّ فعلـه للتأكد من أنه حصل على هذه المعلومة مني، وليس عبر وسائل الإعلام.

كان صباح يوم السبت الواقع في الرابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، مريحاً بالنسبة لي. انتابنـي هـذا الشعور وأنـا أخطو باتجاه غرفـة الجلوس في شقتـي ذات غرفة النوم الوحيدة وسط المدينة، لأقرأ صحيفتيْ نيويورك تايمز وواشنطن بوست. لم أكن قد حلقت

ذقنـي أو استحممت بعد؛ كوني نمـت حتى الساعة السابعة صباحـاً أي بعد ساعتين على موعد استيقاظي في أيام العمل العادية، وكنت أفكر في النزول إلى قاعة الرياضة البدنية في الطابق السفلي. كنت في العادة أحاول الاستمتاع صبيحة كل يوم سبت في المنزل، اللهم إلا إذا اضطـررت للذهاب إلى المكتب. كنت أذهـب إلى المكتب عادة بعد ظهر أيام الأحد لأنجـز بعض الأعمال قبل بداية الأسبوع. بطبيعة الحال، ونظراً لأنني أعيش داخل دائرة مـن الأخبـار على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً، كنـت دائماً تحت الطلب، وكنت أعمل من منزلي أيام عطلة نهاية الأسبوع حتى لو لم أضطر للذهاب إلى المكتب.

وصلتنـي مكالمة من آنـدي كارد نحو الساعة الثامنة والنصـف صباحاً. قال: «تحدث الرئيـس ونائبه إلى بعضهما بعضاً هذا الصبـاح. وهما يريدان منك أن تعطي الصحافة التأكيدات نفسها حول سكوتر كما فعلت حول روف».

لا أشـرب القهـوة في العـادة. أشـرب الكولا التي لا تحتـوي على سعـرات حرارية كي ينتظـم معـدل الكافيـين الصباحي في دمي. كنت مـا أزال أرتشف الكـولا، إلا أن ما قاله آندي أزعجني أكثر مما فعله بي الشراب.

قلـت: «حسنٌ». وما قلته لم يكن مؤشراً على رفضـي الغريزي للقيام بما طلب مني أن أقوم به. أخبرته بأنني سأتجه إلى المكتب، وسأتحدث إليه أكثر بعد أن أصل إلى هناك.

وبعد أن استحممـت وارتديت ثيابي استعداداً للتوجه إلى البيت الأبيض، تساءلت عن السبـب الـذي دعا سكوتر إلى عدم التحدث إلي أولاً، لـو كانت له مشكلة مع المقاربة التي اتبعتها. استناداً إلى تعليقات آندي، كان من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر طلب إلى نائب الرئيـس شخصيـاً أن يوجهني إلى القيـام علناً بإنكار تورطـه في القضية. والآن، وبحكم أن التحقيـق علـى الأبواب، لم تـرق لي فكرة الإشـارة إلى أركان البيـت الأبيض والدفاع عنهـم فرداً تلـو الآخر. في وقت سابق مـن الأسبوع، تحدثت إلى كل مـن آل وديفيد؛ وقد نصحـاني بشـدة بعدم القيام بأي تعليق جديد حول قضايـا تتعلق بالتحقيق، بما في ذلك أسمـاء الأفـراد. وفي الأمس القريـب، أبلغت الصحافة أنني لن أقـوم بذلك. وكنت أعلم أنني إذا فتحت الباب لواحد من هؤلاء، فسيكون من المستحيل عليّ في واقع الأمر إغلاقه

فيما بعد، إذا بدأت أسماء متورطين آخرين بالظهور إلى العلن. وستتساءل الصحافة عن السبب الذي دعاني إلى سؤال سكوتر عن احتمال تورطه، ولماذا لم يسأل البيت الأبيض موظفيه كلهم السؤال نفسه.

لكنه كان أمراً أتى من فوق. نتيجة لذلك، كنت على وشك تجاوز الخط الذي رسمته لنفسي علناً حالما بدأ التحقيق يأخذ مجراه مع بداية الأسبوع.

بعد أن وضعت حقيبتي في المكتب، توجهت مباشرة إلى مكتب آندي. كان يقف أمام مكتب مساعده في ردهة الانتظار التي يتقاسمها مكتبه مع نائبه في الجانب المقابل.

عرفت عن طريق تعليقات آندي المتشنجة على الهاتف أن ما كان يقوله لم يكن قابلاً للنقاش، كما أنني لم أكن أتوقع منه تزويدي بأي معلومات إضافية حول الحوار الهاتفي الذي دار بين الرئيس ونائبه.

لا أعرف إلى اليوم، شيئاً عما دار بين الاثنين؛ لكنني على ثقة عبر معرفتي بالرئيس، وعبر أحاديثي السابقة معه، أنه لم يكن يعرف شيئاً عن ليبي، أو روف، أو أي شخص آخر قد يكون متورطاً في الكشف عن هوية بليم للصحفيين. لم يكن للرئيس أن يقوم بتضليلي عمداً. وبينما أتمنى أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لنائب الرئيس، فإنني أقول وبكل بساطة إنني لست متأكداً من ذلك. فالمعلومات التي ستصبح علنية عن طريق إجراءات قانونية في المستقبل ستطرح تساؤلات حول أفعال نائب الرئيس التي لم يعلن عنها أبداً.

أعلمت آندي أنني سأتلو بشأن سكوتر التصريح نفسه الذي تلوته حول كارل، فيما لو تلقيت التأكيدات نفسها من سكوتر. سألني آندي عن نوع التصريح الذي تلوته بشأن كارل، فأخبرته أنني قلت إنه ليس متورطاً في قضية تسريب هوية بليم، كما أنه لا يوافق على مثل هذا التسريب. كما قلت لآندي إنني عندما أتحدث إلى سكوتر، فسأدعو بعض الصحفيين وذلك للتأكد من أنهم سينشرون ذلك.

عندما عدت إلى مكتبي طلبت إلى عامل الهاتف في البيت الأبيض أن يبحث عن سكوتر ويصلني به. وجرياً على عادته، فقد كان مسافراً مع تشيني الذي كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع في منزله بمدينة جاكسون هول في ولاية وايومينغ.

كانـت المكالمة قصـيرة. لم يكن سكوتر كثـير الكلام بالأصل. كان يعلـم السبب الذي دعـاني إلى الاتصال به، بما أنه هو من أثار المسألة التي تم توجيهي إلى التحدث بشأنها. سألته: «هل كانت لك أي علاقة بعملية التسريب؟».

أجاب سكوتر: «كلا، قطعياً».

قلـت: «حسنٌ؛ أنوي إعلام الصحفيين أنـك لم تفشِ بالمعلومات السرية، ولا يمكن لك أن تتغاضى عن شيء كهذا. هل هذا صحيح؟».

أجـاب: «نعـم». تحدثنا بعدها عن أسمـاء الصحفيين الذين أخطـط للاتصال بهم. وضع سكوتر السماعة، وبدأت في التحضير لمهمة لم أكن راغباً فيها.

دعوت صحفياً من مجلة نيوزويك سمعت أنه يعمل على قصة حول سكوتر، وصحفياً من وكالة الأسوشيتد برس، وآخر من صحيفة نيويورك تايمز. في اليوم نفسه، التقيت مصادفة بمراسـل صحيفة واشنطن بوست مايك آلان خارج مبنى البيت الأبيض، ودعوته إلى ذلك اللقاء؛ وهو ما جعل عدد الصحفيين أربعة يمثلون أربعاً من كبريات وسائل الإعلام – وهو عـدد كبير يساهـم في نشر الخبر على نطاق واسع خصوصـاً وأن هذا الخبر سيتم تناقله عـبر خط وكالة الأسوشيتد برس. أخبرت الجميـع أن سكوتر أكد لي أنه «لم يقم بتسريب المعلومـات السريـة، وأنه لا يتغاضى عن فعل كهذا»، وتأكدت مـن أن المسؤول عن اللقاءات الصحفية المناوب في ذلك اليوم على علم بذلك كي لا يفاجأ هو الآخر فيما لو اتصلت بعض وسائل الإعلام كي تحصل على الخبر بقصد المنافسة مع الصحف الأخرى.

بالتأكيـد، كان الخبر يبـث على الشريط الإخبـاري لوكالة الأسوشيتـد برس بصفته جـزءاً من موضـوع أكبر يتعلق بالتحقيق في قضية التسريب. كنـت سعيداً بالطريقة التي تمـت معالجـة هذه المسألة بهذا الشـكل. كان ذلك يعني أنني نجحـت في تضمين دفاعي «الرسمي» عن سكوتر من دون أن ألفت الكثير من الانتباه إلى هذا النوع من الدفاع.

علمت بعد فترة وجيزة من شان ماكورماك، وهو أحد نوابي الآخرين، وكبير الناطقين باسم مجلس الأمن القومي، أن إليوت أبرامز وهو أحد كبار أعضاء مجلس الأمن القومي قـد أنكر أي تورط له في قضيـة التسريب في حديث له مع أحد الصحفيين الذي اتصل به

مباشرة بناء على «شائعات». من المحزن أن هذا هو الأسلوب المتبع من قبل بعض النشطاء الحزبيين الأقل تشكيكاً في واشنطن عند وقوع أي فضيحة: أطلقْ شائعة في وسائل الإعلام، وانتظرْ لترى إن كان سيكون لها التأثير المطلوب. لم تكن هناك أي معلومات بالمرة تشير إلى تورط أبرامز في مسألة التسريب هذه، لكنه كان ينظر إليه باعتباره كبير الصقور من غير المحافظين في مجال السياسة الخارجية، وكان مؤيداً لتغيير النظام في العراق. كان قد حصل على عفو من الرئيس بوش الأب عندما أدين مرتين بتهمة حجب معلومات عن الكونغرس في فضيحة إيران- كونترا السيئة الذكر. لهذه الأسباب، كان يعد دائماً هدفاً سهلاً لكل المزاعم غير الموثقة.

بالنسبة لي، كان إليوت خبيراً متعاقداً في شؤون السياسة الخارجية، وزميلاً لم يبخل بمد يد المساعدة لي وخصوصاً في ذلك اليوم. اتصلت به وحصلت منه على التأكيدات نفسها؛ فكرت أنه من الأفضل قيامي بإيصال إنكاره هو الآخر، إلى الصحفيين أنفسهم الذين تحدثت إليهم بشأن سكوتر، بما أن إليوت كان قد تحدث لي عن هذا الموضوع لتوه. من الأفضل التصريح عن هذا الموضوع دفعة واحدة وفي الحال، وذلك في الدائرة الإخبارية نفسها بدلاً من إعطاء تصريح لجهة ما، اليوم؛ ولجهة أخرى، غداً، وهكذا. وبناء عليه، فقد طلبت لقاء الصحفيين من جديد.

ازداد شعوري بالإحباط لأن هذا كان عكس ما أردت له أن يتم. كنت أضع نفسي في قلب التحقيق عبر الدفاع عن أشخاص ضد رغبتي، وعكس النصائح التي قدمها لي مستشار البيت الأبيض.

عادت موضوعات الأسئلة الصحفية في الأسبوع الآتي لتحتل المساحة الواسعة المعتادة في الحوارات واللقاءات الصحفية، إلا أن التحقيق في قضية التسريب بقيت في قلب الدائرة. كان المساعدون في البيت الأبيض بمن فيهم أنا، كل على طريقته، يبحثون في سجلاتهم الإلكترونية، ومراسلاتهم، وقوائم الاتصالات الهاتفية التي أجروها، ومفكراتهم، الملحوظات التي دونوها؛ ومن ثم، ينسخون كل ما من شأنه أن يصب في خانة طلب وزارة العدل من الوثائق حول الموضوع.

يوم الاثنين، وفي معرض ردي على أحد الأسئلة، أكدت في اللقاء الصحفي أنني تحدثت إلى كل من كارل، وسكوتر، وإليوت، وأن كلاً منهم بدوره أنكر أي تورط في قضية تسريب هوية فاليري بليم. وكما توقعت، فقد تساءل الصحفيون عن سبب سؤالي هؤلاء الأشخاص الثلاثة بالتحديد، ولماذا لم يطلب الرئيس من أركان البيت الأبيض الآخرين الإجابة عن السؤال نفسه. قمت ببعض التراقص اللغوي في معرض جوابي على هذه الأسئلة، نظراً لعلمي أنني لم أكن مخولاً للحديث عن كل جوانب القصة.

أدركت متأخراً أنه كان على الرئيس أن يخالف رأي مستشاريه ويطلب إجراء تحقيق داخلي لتقرير من يمكن أن يكون في دائرة الشبهة من بين أركان البيت الأبيض. كان عليه أيضاً إعطاء الأوامر بتزويد الرأي العام بأكبر كم ممكن من المعلومات حالما يتم التوصل إليها، وذلك لكي لا تحتل الفضيحة عالماً مستقلاً بحد ذاته. لكنه اختار أن لا يقوم بذلك، ربما لأنه كان يشعر أن بقاءه بعيداً عن مجريات القصة سوف يحصنه ويحميه ضد أي ضرر سياسي محتمل. ولكن بدلاً من أن يكون الأمر كذلك، احتلت القصة حيزاً أكبر، وعاشت فترة أطول، وهو ما ساعد في إذكاء روح التشكيك، وتسعير أوار الحرب الحزبية التي تعهد أن يشفي واشنطن منها.

شاطرني دان بارتليت فيما بعد، الرأي بأن ديفيد أدينغتون مستشار نائب الرئيس عبر عن قلقه بعد أن علم أنني برأت ساحة سكوتر علناً. حذر أدينغتون بارتليت بصورة محددة أنه ما كان عليّ القيام بالحديث علناً عن التحقيق، أو مناقشة ما قام به، أو لم يقم به أي شخص. أجاب بارتليت، «إن رئيسك هو من طلب إلينا القيام بذلك». لويت شفتاي لبرهة قصيرة بينما كنت أنا وبارتليت نهز برأسينا. لقد انتابنا نوع من الشك.

كان يُنظر إلى أدينغتون بصفة عامة كواحد من أكثر المسؤولين سرية في البيت الأبيض. وبمرور الوقت، تبين لي أنه واحد من أكثر الناس رغبة في تقديم المساعدة لي. كان يتقاسم المعلومات معي ويبادر بإسداء النصح لي بصفة سرية كي لا يزل لساني في اللقاءات الصحفية بصفتي السكرتير الصحفي. أكثر ما كان يثير اهتمامي هو الحصول على الصورة الكاملة عندما أبحث عن معلومات عند أحد الزملاء. لم يكن ذلك سهلاً

علـى الـدوام في مكان مثل البيـت الأبيض حيث لم يكـن بعضهم يبـدي أي اهتمام يذكر بالصحافـة، أو ينظر إليها «كمجموعة ضغط» أخرى. لكن ديفيد كان متفهماً لحاجتي في أن أكون على اطلاع على مجريات الأمور كي أكون فاعلاً ودقيقاً في عملي. فلو علم بشيء، كان يشعر أن عليه تقديم المساعدة، لم يكن بحاجة إلى التلقين ليتقاسمها مع أحد، أو إلى لعبة العشرين سؤالاً كي يستنتج ضرورتها.

ولكن، لسوء الحظ، لم يكن أحد يستمع إلى نصائح أدينغتون، أو يأبه لها على ما يبدو، خصوصـاً من قبل أولئك الذين كانوا يدفعـون بي أكثر فأكثر، باتجاه الجحيم الذي كنت ألج إليه من دون وعي مني.

في اللقـاء الصحفـي الذي عقدته في العاشر من شهر تشريـن الأول، أكتوبر، أدليت بآخر تعليق لي حول التأكيدات التي قدمها كل من روف وليبي. فبعد وقت قصير، سيبدأ عمـلاء من مكتب التحقيقات الفيـدرالي، ووزارة العدل بدء التحقيـق مع المسؤولين في البيت الأبيض.

تحدثت إلى كل من آل وديفيد حول وضعي الشخصي بعد أن اتصل بي مكتب التحقيق الفيـدرالي. قـال لي ديفيد بعـد أن ذكّرني بأنه لا هـو، ولا آل يعـدان نفسيهما محاميين شخصيين بالنسبة لي: «لا تستطيع في هذا اللقاء أن تتحدث بطريقة تشبه طريقة حديثك بصفتـك ناطقـاً رسمياً باسم البيـت الأبيض. لا بد مـن أن تجيب علـى الأسئلة بانفتاح وبصـورة كليـة، وهذا بعكس الأسلـوب الذي تتبعه في وظيفتك حيـث لا تقدم هناك سوى النذر القليل من المعلومات بوصفك ناطقاً صحفياً. ليس عليك أن تتطوع بتقديم معلومات أكثر مما يطلبون في أسئلتهم؛ ولكن عليك أن تكون صريحاً، وأن تستجيب لما قد يسألونك عنـه». هذه النصيحـة لم تأتِ مثل مفاجـأة بالنسبة لي؛ لكنها ساعدتنـي في تعزيز هذه الأفكار بشكل مسبق.

كان آل وديفيـد قد اقترحا أن يقوم أحدهم مـن مكتبهما بحضور أي مناقشات يمكن أن تطرح بيني وبين مكتب التحقيقات الفيدرالي. تبين لي أن ذلك ستكون طريقة مناسبة

أيضـاً بالنسبـة إليهم كي يبقوا علـى اطلاع على مجريات التحقيـق، وأن يكون بإمكانهم إطـلاع الرئيس على أي مستجدات. مع ذلك، كان من دواعي سروري قبول العرض الذي تقدما به.

تم أول لقـاء بيني وبين عملاء مكتـب التحقيقات الفيدرالي بعد عـدة أيام في إحدى غرف المؤتمرات في الطابق الثاني كان مكتب المستشار قد وفرها في مبنى مكتب أيزنهاور التنفيذي في محيط البيت الأبيض، مقابل الممشى التنفيذي الغربي الذي يؤدي إلى مدخل الموظفـين في الجناح الغربي. كان الضوء يدخـل إلى تلك الغرفة ذات السقف العالي من نوافـذ كبـيرة في أحد جوانبها. ولم يكـن يوجد في الغرفة سوى طاولـة مؤتمرات خشبية كبيرة تحيط بها كراسي جلدية.

أدار النقاش جـون إيكيـنرود، العميل الخاص المسـؤول عن التحقيـق لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ اليوم الأول. انضم إليه لاحقاً عميلان آخران أُجلسا إلى جانب الطاولة التي تواجه الباب؛ كنت في الطرف الآخر في مواجهة النافذة من خلفهم.

كان قد تم تزويدهم بنسخ من كل الوثائق الموجودة في ملفاتي والتي كنت قد سلمتها إلى مكتـب المستشار في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول، أكتوبر. أذكر رسالة إلكترونية كنت قـد استلمتها من صديقة لمساعدتي الشخصية كارمن إنغويل. كانت صديقة كارمن قـد حضرت درساً أو محاضرة في جامعة كاليفورنيا منذ عدة سنوات لجو ويلسون، قالت إن ويلسـون ذكر خلالها، أن زوجته تعمل لصالـح وكالة المخابرات المركزية. لم تكن لدي أي فكرة حول ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا.

كان التحقيـق ما يـزال في مراحله الأولى، وبدا أن العمـلاء كانوا يركزون على معرفة كيف تصرف البيت الأبيض بما في ذلك، فريق مكتب الاتصالات في البيت الأبيض، وكيف تعامل مع وسائل الإعلام.

كان تيـد أوليوت، المحامي الثلاثيني، الذكي، والبـارع، والعامل في مكتب المستشار في البيـت الأبيض يصغي في الوقت الذي كنت أجيب على الأسئلة. كنت أعرف تيد قليلاً عن طريق العمل معه حول قضايا أخرى، وكان دائماً يُظهر أنه منفتح ومستعد لمد يد المساعدة.

كان هـو وزميله راؤول يانس قد كلفا بحضور جلسات التحقيق في مكتب المستشار. تعرفت إلى تيد بصورة أفضل خلال تلك المرحلة، وكنت أظن أن آل وديفيد لم يكن باستطاعتهما اختيـار من هم أفضل من هذين الشخصين لهذه المهمة المثيرة للجدل، والتي يتم تسليط الضوء عليها بشكل كبير.

بعـد اللقاء الأول مع محققي مكتـب التحقيقات الفيدرالي، أذكر أنني قلت لتيد ونحن نسير خارج الرواق المؤدي إلى مبنى المكتب التنفيذي عائدين إلى الجناح الغربي: «فوجئت بأنهـم لم يسألوني أي أسئلة ملموسة عما يمكـن أن أكون أعرفه، مثل محادثاتي مع روف وليبي». في الاجتماع الثاني الذي أظن أنه حصل بعد أسبوعين، كانت الأسئلة تتمحور حول ما يمكن أن أعرفه. ولم يستغرق أي من اللقاءين أكثر من ساعة واحدة لكل منهما.

في الثلاثين من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003، عقد جيم كومي، نائب المدعي العـام مؤتمراً صحفياً في وزارة العدل. أعلن أن المدعي العام جون آشكروفت أعفى نفسه مـن التحقيق ليتجنـب أي شكل من أشكال صراع المصالح. صـرح كومي بعدها أنه سمّى مدعٍ خاص للإشراف على التحقيق في التسريب – وهو باتريك فيتزجيرالد من شيكاغو. كان فيتزجيرالـد ينظـر إليه بكثـير من التقدير بصفتـه مدعياً عاماً للولايـات المتحدة، والذي كان يعرف عنه الالتزام بالقانون، وعدم التأثر بالسياسة.

لم يكـن كومي ليتحدث في الأسباب التي حدت بـه إلى تعيين المستشار الخاص عدا قوله إن «جملة من الحقائق» تراكمت على امتداد الأشهر القليلة الماضية أدت إلى اتخاذ مثل هذا القرار. أضاف: «لا نريد أن يعرف الناس الذين يهمنا أمرهم أننا مهتمون بأمرهم. كما أننا لا نريد أن نشوه سمعة من يمكن أن يكون بريئاً، أو من يمكن أن لا يوجه إليه أي اتهام».

اتصل بي رون روس نائب رئيس وحدة مكافحة التجسس في وزارة العدل الذي يرأسه جـون ديـون لترتيب موعد للقاء الفريـق المشرف على التحقيق قبل أيـام من استدعائي للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى. سألني هذه المرة فيما إذا كنت أنوي القدوم بمفردي مـن دون مرافقة أحـد من مكتب المستشـار. أوضح لي أنهم يفضلـون التحدث إلي على انفـراد. وافقـت. لم يتغير الموقف بالنسبـة لي إلا بنسبة ضئيلة، بالرغـم من أنني كنت

ممتنـاً لسمـاع أي ملاحظة كان يمكن لتيـد أن يبديها لي. شككـت في أن فريق التحقيق أراد أن يبقـي المعلومات على أكبر نطاق ممكن من السرية في الوقت الذي كانوا يتابعون الاستماع إلى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى.

قبـل ذلـك، عندما علمت أن استجوابـي سيتمحور حول تبرئتـي العلنية لكل من روف وليبي وأبرامز، فقد استشرت زوجة شقيقي ستيفاني ماكليلان التي كانت مساعدة مدعي المقاطعـة في مقاطعة سان جوزيـه، كما استشرت شقيقي دادلي، الذي كان يعمل كاتباً في مكتب قاضٍ فيدرالي في مدينة أوستن.

كانـت وجهة نظر ستيفاني أن أقـوم بتوكيل محامٍ في هذه القضيـة، بالرغم من أنني قلـت لها إنني لا أعرف شيئاً عن التسريب الحقيقي، وأن دوري كان مقتصراً على الدفاع عن البيت الأبيض، وعن عدد محدود من المسؤولين بعد أن حدث ما حدث. لكنها أوضحت بحدسهـا أنه لا يمكن للمرء أن يعرف بشكل مؤكد كيف يمكن للكلمات التي تم التلفظ بها أن تُـؤوّلَ، أو – وهـذا أسوأ – تُحرّف، خصوصاً ضمـن سياق تحقيق سياسي مسلطة عليه الأضواء، يتم أثناء حملة انتخابية.

لم يلـزم دادلي نفسـه بتقـديم أي نصح محدد لي؛ إلا أنه نصحنـي بصفته شقيقي، وأيضـاً بصفته محامياً مطلعاً على مجريات الأمور بتوكيل محامٍ. ولقد سألته فيما بعد، بعض الأسئلة الأساسيـة المهمة. ربما كان هـو وتوأمه برادلي، وشقيقنـا الأكبر، مارك يضايقوننـي في صغري، لكننا الآن مقربون جداً من بعضنا بعضاً كما ينبغي أن يكون كل الأشقاء. كان من المطمئن والمشجع بالنسبة لي معرفة أن باستطاعتي اللجوء إليه عندما أشعر بالضغوط تزداد من حولي.

كان الزمـلاء من حولي يعتقـدون أن من الجنون عدم توكيل محـامٍ. قالت لي نائبتي كلير بوكان وهي صديقة عزيزة، وقفت دائماً إلى جانبي: «عليك أن توكل محامياً».

إلا أنني، وعلى العكس من كثير من زملائي قررت أن لا أوكل محامياً. سأقول الحقيقة للمحققـين – أي مـا أعرفـه، وما أتذكـره. ومع عدم وجـود أي شيء أخفيـه، ومع الأخذ بالاعتبار أن ما يربطني بالقضية أتى بعد حدوث عملية التسريب، شعرت بالارتياح كوني

اتخذت هذا القرار. (لست ألمح هنا إلى أن زملائي كان لديهم ما يخفونه، وأنا هنا أعبر فقط عن مشاعري الخاصة حول قراري).

وهكذا في عصر ذلك اليوم البارد، كنت في مكتب وحدة مكافحة التجسس المتوضع في أحد الطوابق العليا من مبنى وزارة العدل، على بعد عدة أحياء من البيت الأبيض.

كانت الغرفة التي التقينا فيها مظلمة نوعاً ما. كانت الطاولة طويلة. رأيت عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية الذين قابلوني في المرة السابقة. عرّف رون روس عن نفسه، كما عرّفني على الآخرين المتواجدين في الغرفة. جلست إلى منتصف الطاولة مقابل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، كما فعلت في اللقاءات السابقة في مبنى المكتب التنفيذي. جلس أعضاء فريق المدعين عبر الطاولة أيضاً إلى اليمين مني. لكن فيتزجيرالد لم يكن في الغرفة.

وبينما كانت اللقاءات السابقة مباشِرةً، وبعيدة عن أي توتر، بدأ هذا اللقاء بشكل مختلف. روس الذي لفت نظري لكونه مدعٍ جاد ومهني، سألني لماذا برّأت ساحة روف وليبي. ثم طلب توضيحاً عن سبب عدم ذكري في اللقاء الأول أن كارل سبق له أن تحدث إلى نوفاك. فوجئت نوعاً ما، ونظرت إلى أحد عملاء مكتب التحقيق الفيدرالي وقلت: «أخبرتك بكل شيء عندما سألتني في اللقاء الثاني. لم تسأل عن هذا الموضوع في اللقاء الأول». لم يعلق العميل بشيء. قلت في نفسي: حسنٌ، يريدون الظهور بمظهر القساة كي يتأكدوا من أنني قلت لهم كل شيء أعرفه، أو أستطيع تذكره، وكي يتأكدوا أن تحقيقهم أوغل في العمق في محاولةٍ منهم معرفة الحقيقة.

بعد عدة دقائق، دخل بيتر زيدنبيرغ، الذي يشغل منصب المدعي من وحدة الاستقامة العامة إلى الغرفة. عرَّفَ عن نفسه، وبدا شخصاً ودوداً. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن ينال ثقتي واحترامي للروح المهنية والودية التي أظهرها.

لعب دور الشرطي الطيب مقابل روس، الشرطي الشرير موضحاً أنهم يحاولون فقط تبيان الحقيقة. قال إنه شاهد في العديد من المرات كيف يمكن أن تكون ذاكرة الشاهد ضبابية عندما يُطلب إليه تذكر أشياء حدثت منذ أسابيع، أو أشهر، وأنهم

فقـط يريـدون التأكد مـن أنهم تحدثوا إليّ قبـل مثولي أمام هيئـة المحلفين الكبرى. توقعت خلال تعليقاته، أنه كان يراقب المناقشات الأولية عبر ما تبين أنها نافذة يكشف زجاجهـا عـن جانب واحد فقط، وهـي النافذة التي كانت على يميني، مثل تلك التي يشاهدها المرء في مسلسل (Law and Order).

لم يستمـر اللقـاء أطول من ذلـك، عدت بعدهـا إلى البيت الأبيض لأستأنف القيام بواجباتـي سكرتيراً صحفيـاً. مع ذلك، تساءلت عن سر مقاربتهـم المتشددة في البداية. شعـرت بشيء من عدم الاستقرار كوني كنـت متعاوناً معهم ومنفتحاً عليهم بشكل كامل. أتصـور أنهم استخدموا هذا التكتيـك لمحاولة هز أعصاب مـن يستجوبونهم للتأكد من صدق ما يقولونه. لكن الطريقة التي آلت إليها الأمور أراحتني، وشعرت أنهم اطمأنوا إلى أنه لم يكن لدي ما أخفيه.

كان شريـط مثولي أمام هيئة محلفين فيدرالية كبرى يدور أمامي. وكما خمنت، فإن هذا الإحساس انتاب زملائي أيضاً، لقد ضغط هذا الشريط على عقلي بسبب المضمونات الخطـيرة التي تتصف بهـا طبيعة التحقيق. ولقد توقف العاملـون في البيت الأبيض عن الحديـث مع بعضهم بعضـاً حول أي شيء محـدد يتعلق بالتحقيـق في التسريب، بما في ذلـك احتمال أن يكـون أي منهم قد تم استجوابه، أو احتمـال أن يكون أياً منهم قد وكل أحـد المحامين (كما في حال كل التحقيقات التي يتم تسليط الأضواء عليها في واشنطن، فقـد وكل جميع المسؤولين الذين مثلوا أمام هيئـة المحلفين الكبرى محامين وذلك زيادة منهم في الحذر، حتى لو كانوا يعرفون أنهم غير متورطين)؛ وكان هذا هو الشيء الوحيد تقريباً الذي سمعته من زملائي عندما كانوا متجهين للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى، طالمـا أن الصحافة كانت محتشدة خارج غرفة هيئـة المحلفين الكبرى بشكل يومي، وأن زملائي لم يرغبوا في أن أسمع بهذا الأمر من صحفي. بالإضافة إلى ذلك، كان الصمت يلفنا جميعاً، فقد كنا نشعر بالقلق يخيم فوق رؤوسنا.

تساءلـت مـن دون أن ينتابني التوتر: هل كانت نصيحـة ستيفاني في محلها؟ هل كان علـيّ أن أتكل على نصيحة محامٍ؟ عندمـا توافق على العمل لدى رئيس الولايات المتحدة، لا يخطـر ببالك، كجزء من توصيف وظيفتك، أنك ستستجوَبُ من قبل مكتب التحقيقات

الفيدرالية، أو تدلي بشهادتك أمام هيئة محلفين كبرى تحت تهديد تعرضك للاتهام بحنث في اليمين.

قيل إن هيئة المحلفين الكبرى بدأت بالاستماع إلى الشهادات في نهاية شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2004. استُدعيتُ للمثول أمام المحلفين بعد ظهر يوم الجمعة في السادس من شهر شباط، فبراير.

التقيت بروس وأحد العملاء خارج الرواق في ردهة بالطابق العلوي في مبنى المحكمة الفيدرالية في بريتيمان قرب مبنى الكابيتول في شارع بنسلفانيا. كان الطقس عصر ذلك اليوم غائماً وبارداً، بالرغم من أن ذلك متوقع في واشنطن في تلك الفترة من السنة. وكان هناك رذاذ خفيف من المطر بين الحين والآخر.

أبلغوني بأنهم سوف يكونون مستعدين لمقابلتي قريباً جداً، وأن عليّ أن أتماسك. كان كلاهما ودوداً عصر ذلك اليوم. جلست على كرسي في الرواق الفارغ، والسيئ الإضاءة.

مشيت باتجاه غرفة هيئة المحلفين الكبرى عبر قاعة ضيقة وصغيرة. ولجت إلى الغرفة غير ملم بما يمكن أن أتوقعه. طلب إلي الجلوس على كرسي خشبي قرب الباب عند طرف طاولة لها شكل حرف L. كان فريق المدعين إلى يميني في مواجهة المحلفين الذين كانوا يجلسون كما في مقاعد في مسرح في مواجهتنا، ومن فوقنا.

خمنت أن هناك ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين من المحلفين موجودون. وكان كاتب الاختزال عبر الممر يدون كل الأسئلة وأجوبتي عليها.

كان زيدنبيرغ، المدعي العام لوحدة الاستقامة هو من قام بتوجيه الأسئلة. وكان من الصعب معرفة من كان موجوداً حينها لأن موضع الكرسي التي كنت أجلس عليها لم يسمح لي بذلك، بالإضافة إلى أنه لم يجرِ أي تعريف بالحضور. ربما كان باتريك فيتزجيرالد، وهو الشخص الذي أحسست أني أعرفه عبر اهتمام الصحافة به، ولكن لم أكن قد التقيت بعدُ به، موجوداً، لكنني لم أره، فقد كان تركيزي منصباً على الإجابة على الأسئلة.

التفتُّ قليلاً باتجاه اليسار، وذلك كي يكون بإمكاني رؤية المحلفين ولو بشكل جزئي، في الوقت الذي كنت أنظر إلى زيدنبيرغ. أول ما سألني كان حول صحة ما قيل إنني لم أقم بتوكيل محامٍ. أوضحت بأنني لم أوكل محامياً ولكنني تحدثت إلى شقيقي دادلي عدداً من المرات حول الموضوع.

طرح علي بعدها سلسلة من الأسئلة أمام هيئة المحلفين الكبرى، سبق لي أن أجبت على معظمها في لقاءات سابقة، بما في ذلك جرد لأحاديثي مع كارل وسكوتر، والتأكيدات التي قدماها لي بأنهما غير متورطيْن بقضية تسريب هوية بليم.

لكن كانت هناك بعض الأسئلة التي لم يطرحوها علي من قبل. سألني زيدنبيرغ فيما إذا كنت قد أبلغت كوندي رايس أن عليها القول إن كارل ليست له علاقة قبل أن تظهر على أحد البرامج الحوارية يوم الأحد في الثامن والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر سنة 2003. (لم تتحدث رايس عن هذا الموضوع علناً في أي من هذه البرامج الحوارية).

فكرت ملياً. أذكر أنني تحدثت إلى كوندي يوم السبت ذاك – وهو يوم السبت نفسه الذي اتصلت فيه بروف بعد أن علمت أنه تحدث إلى نوفاك، وأكد لي حينها أنه لا علاقة له بموضوع تسريب معلومات سرية – كما أفعل عادة مع المسؤولين في الإدارة قبل أن يظهروا في برامج الأحد الحوارية. وكان هذا الإجراء نوعاً من تهيئتهم للإجابة عن أسئلة مشابهة، والتأكد من أن الجميع «يقرؤون من نفس الصفحة»؛ علمنا أن المقالة التي ظهرت في عدد الأحد في صحيفة واشنطن بوست سوف تثير أسئلة عن احتمال تورط البيت الأبيض في التسريب. هل أمليت على كوندي ما يجب أن تقوله حول كارل روف؟

قلت، ربما أكون قد فعلت، لكنني لا أستطيع تأكيد ذلك. أوضحت بأنني ربما أحطتها بما صرحت به أمام الصحافة، وأنني ربما اقترحت عليها الإشارة إلى ما قلته من دون أن تتطرق إليه هي بنفسها.

أصبت بصدمة عندما طرح علي السؤال الثاني. سأل زيدنبيرغ إذا كان صحيحاً أن الرئيس أبلغني في المكتب البيضاوي أن كارل روف أخبره بأنه غير متورط في القضية؟

كانـت تلك هي المرة الأولى التي أُســأَلُ فيها عن أي شيء عرفه الرئيس أو قاله. وطالما أن الرئيــس لم يتــم سؤاله بعد، عرفت أن آندي هو من أطلـع المحققين على ذلك في مناسبة سابقــة. وعبر معرفتي أن الرئيــس يفضل أن تبقى أحاديثه الخاصة طي الكتمان، ترددت للحظة. لكن المسألة هنا مختلفة. كنت أعرف أن الصدق هو الخيار الوحيد. وبالرغم من اختناق صوتي، تمكنت من التأكيد أن الرئيس قال ذلك بالفعل.

استكمــل زيدنبيرغ استجوابه، وسأل المحلفين إذا كانــت لديهم أي أسئلة. فقط امرأة مــن أصول إفريقية كانت تجلس في آخر الغرفــة في الصف الأول كان لديها سؤال. طلبت إلي تعريف ما تعنيه لي عبارات «الخلفية»، و«الخلفية البعيدة»، و «ليس للنشر».

أجبــت بالقول إن العبــارات المذكورة تعني أشياء مختلفة قليــلاً لمختلف الناس. قلت «إن عبــارة «خلفيــة» تعني لي أن صحفياً يمكن له أن يقتبس مما قلتِه من دون أن يذكركِ بالاســم. عادة ما يتفق الصحفي والمصدر على الكيفية التي ينسب فيها الخبر: «مسؤول رفيــع في البيت الأبيض»، أو «مسؤول رفيــع في الإدارة»؛ ولو أراد المصــدر أن يكون أكثر بعداً، ربما يمكن استخدام عبارة «مسؤول في الحزب الجمهوري». أما بالنسبة إلى عبارة «الخلفيــة البعيدة»، فإن معظم الصحفيين يعتبرونهــا معلومات يمكن لهم استعمالها في تقاريرهــم من دون أن يتمكنوا مــن الإشارة مطلقاً إلى المصدر بشــكل مباشر. وأخيراً، عبــارة «ليس للنشــر» تعني بالنسبة لي أن الصحفي لا يستطيــع استعمال المعلومات التي بحوزته في تقاريره بأي شكل من الأشكال».

انتهــت الجلسة في غضون ساعة. شكرني روس وأحــد العملاء، وهما يسيران بجانبي وأنــا عائد باتجاه الرواق. قــالا إنني بينما أنا حر من الناحيــة القانونية للتحدث حول ما جرى معي، فإنهما يفضلان أن تبقى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى سرية.

وبينمــا كنت أتجــه نحو الدرج، كانت هنــاك صحافية تقف في الردهــة، وقد عرفتني وتبعتنــي أثنــاء نزولي على الدرج. قدمــت نفسها لي بصفتها مخرجــة في محطة CBS، وسألتني عن مكان وجود محاميَّ. نظرت خلفي وداعبتها بالقول: «لا أدري. ألم تريه هناك

في الخلف؟» بعد أن تلفتت حولها لبضع ثوانٍ، قلت لها إنني لم أوكل محامياً. أعربت عن دهشتها من ذلك لأن جميع من رأتهم يدخلون إلى هناك، كانوا برفقة محامين.

تجمع عدد آخر من الصحفيين خارج مبنى المحكمة وهم يحاولون الاحتماء من المطر الخفيف الذي كان يتساقط ذلك اليوم. رسمت ابتسامة لا مبالية، وأنا أقف لتلقي بعض الأسئلة. وقبل صعودي إلى سيارتي، قلت: «أنا سعيد بالقيام بدوري في التعاون الكامل مع التحقيق كما وجهنا الرئيس».

استمر التحقيق لأشهر من دون أن يتسبب ذلك في انحراف حقيقي عن سكة الحملة الناجحة لإعادة الانتخاب. مع ذلك، لم يكن العاملون في البيت الأبيض يتحدثون إلى بعضهم بعضاً حول هذه المسألة. كان مكتب المستشار قد وضع حظراً منذ مدة طويلة على الجميع بعدم التحدث علناً حول هذا الموضوع بمن فيهم أنا. كانوا قد أنفقوا سراً مبالغ كبيرة على المحامين، وأهدروا ما يكفي من الوقت وهم يجيبون على أسئلة المحققين، ولذلك لم يشأ أحد منهم القيام بأي شيء يمكن أن يكلفنا مصاريف أكثر، أو أن تتألف أكثر، مواعيدنا التي تآكلت فعلاً.

أتصور أن بعضهم قد انزلق أحياناً، ووجدوا أنفسهم يشتكون من الساعات التي قضوها أمام هيئة المحلفين الكبرى، أو يثرثرون حول «من يمكن أن يكون قد فعلها». في بعض المناسبات، حتى الرئيس نفسه، لم يملك إلا أن يتحدث عن الموضوع. أذكر أنني سمعته في المكتب البيضاوي، أو على متن طائرة الرئاسة يشكو من أنه قد يضطر إلى توكيل محامٍ، ومن احتمال أن يتم استجوابه.

قابل باتريك فيتزجيرالد الرئيس، وبعض أعضاء فريقه لمدة سبعين دقيقة تقريباً في المكتب البيضاوي في نهاية شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 بحضور «القاذف» كما كان الرئيس يطلق على محاميه الخاص، جيم شارب. أدلى آل غونزاليز بشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل أيام من ذلك؛ كما تمت مقابلة نائب الرئيس في أوائل شهر حزيران، يونيو، سنة 2004. ليست لدي أي معلومات بشان طبيعة الأجوبة التي قدمها الاثنان للمدعين.

مَثُـلَ كارل روف أمـام هيئة المحلفين الكبرى في الخامس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبـر، سنـة 2004. وقد أدى مثوله أمام المحلفين قبل أسابيع من إجراء الانتخابات إلى قيـام الديمقراطيين باستغـلال هذه الفرصة لإطـلاق الاتهامات صـوب الرئيس. كانت حملة كيري التي تبحث عن مساحة لها في هذه المرحلة المتأخرة من الحملة الانتخابية قد دعـت روف والبيت الأبيض «إلى الكشف عن دورهما في هـذه الفعلة الشنعاء». وكان هذا المثول الوحيد الذي قام به روف أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل الانتخابات، لكنه لم يكن الأخير. في مستهل التحقيق، كان الرئيس قد اتخذ قراراً بعدم إجراء تحقيق داخلي. قال إنـه كان يريد أن يذهـب إلى أبعد مدى في التحقيق في هذا النشـاط المشبوه الذي يحيط بمسلسـل التسريـب، لكنه لم يأمر أياً من أركان البيت الأبيـض بالقيام بتحقيق، أو يبادر إلى اتخـاذ خطوات لرفـع الغطاء عن الحقيقة، أو إطلاع الشعب عليها. اختار الرئيس أن يـترك موضوع التسريب وعواقبـه للمستشار الخاص حصراً، وذلـك - على الأقل جزئياً - بناء على نصيحة تلقاها من محامي البيت الأبيض، وبعضٍ من كبار مستشاريه.

شكلـت هذه المقاربة تناقضـاً صارخاً مع الطريقة التي قارب بها البيت الأبيض اللغط الدائـر بشأن الكلمات الست عشرة التي قادت إلى الفضيحة. فما حدث في تلك القضية، أنه حالما تم اتخاذ القرار بتحديد الكيفية التي تسربت فيها الكلمات إلى خطاب الرئيس، وصلنـا بسرعة مقبولة إلى حقيقة ما جرى، وتشاطرنا المعلومات بأفضل ما نستطيع. لقد كانـت مقاربة ذلـك اللغط بهذا الشكل المنفتح والصادق، سببـاً في اختصار الوقت الذي كان يمكـن أن تبقـى موضوعة فيه على رف الأخبار، ووضع حد لأي زخم يدعو إلى إجراء تحقيـق خارجي حول هذا اللغط بشكل خاص في الوقت الـذي أيد إجراءَه مبدئياً أعضاءُ الكونغرس من الديمقراطيين.

ولكن عندما أصبح الأمر يتعلق بالكشف عن هوية بليم، تركنا الأمر لتحقيقات خارجية قـام بها صحفيون ومدعون عامّـون، بحيث أفسحنا المجال للقضيـة في أن «تتحول بشكل قاسٍ إلى حالٍ دائمة من التشكيـك والتقاتل،» كما وصف بوب وودوارد فضيحة ووترغيت في كتابه المعنون: Shadow وتأثيرها على كل من خَلَفَ نيكسون.

كان من المفروض إيضاح المخاطر التي رافقت هذه المقاربة. ولكن في خضم الجعجعة التي تطغى على الحياة في البيت الأبيض، فإنك تتعلم أحياناً الدروس الخاطئة من التاريخ، وتخفق في الاعتراف بهذه الحقيقة. يصبح انتباهك مركزاً على حماية الرئيس، لدرجة أنك لا تتبين أنك ترمي بالنرد، وتفقد سيطرتك على المشكلة.

لم أكن أعرف شيئاً عن التسريب، أو عن أسبابه. ونظراً لأن أحداً لم يعلمني بالجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تعاملت مع الموضوع بكل بساطة، من مبدأ حسن النية، وهكذا كان موقفي من كبار مستشاري الرئيس. اعتقدت، مستنداً في ذلك بدرجة كبيرة إلى التأكيدات المطلقة التي تلقيتها من روف وليبي أن البيت الأبيض لم يكن متورطاً في تسريب معلومات سرية، أو خلق بيئة أدت إلى هذا التسريب. ولكن من المحزن القول إنني علمت أن ما جرى هو العكس من ذلك تماماً.

هل كنت سأتبنى هذه المسألة بشكل صريح ومباشر، لو علمت بالحقائق والظروف التي رافقتها، ولو كنت بقيت في عملي فترة أطول، أو لو كانت لدي خبرة سابقة بالتحقيقات الجنائية؟ أظن أنني كنت سأقوم بذلك. كنت وما زلت أعتقد أن عبارة «لا تعليق لدي» تمثل إستراتيجية سيئة في مجال الاتصالات. فهي مثيرة قطعاً للشبهات وتمثل أسلوباً دفاعياً. ولكن في هذه الحال، اضطررت أن أتماشى مع القرار الذي تم اتخاذه؛ وليتني لم أفعل.

تعهد المرشح جورج دبليو بوش إلى انتخابات الرئاسة في حملة سنة 2000 بأن يكون مختلفاً؛ إلا أنه اختار بعد وصوله إلى البيت الأبيض أن يكون على شاكلة من سبقوه. وتماماً مثلما فعلت رئاسة كلينتون عندما كان عليها مواجهة عملية استجواب، فقد قمنا بتأجيج أوار أعداد لا تنتهي من الفضائح والتحقيقات التي أقسمنا على تجاوزها، وذلك عبر انغماسنا في اللف والدوران، وبناء الجدران العازلة، وإنشاء السياج، والمراوغة، والإنكار، وتغييب منطق الاتصالات، والخداع واللامبالاة.

كان القرار بغزو العراق السبب الحاسم في حرف رئاسة بوش عن مسارها، كما أن تبنينا المفرط للألاعيب السياسية المتوضعة في قلب ثقافة الخداع في واشنطن أبقى الرئاسة خارج مسارها. عندما كان يمكن للصدق أن يساعد في التخفيف من كثافة الغبار

السياسي المتساقط بسبب الكشف عن المنطق الرئيس المؤدي إلى الحرب، فقد اخترنا أن نستعمل سياسة اللف والدوران، والمراوغة.

وبينما صبت هذه الأساليب في صالحنا على المدى القصير، ولم تتسبب في أي أذى لمسألة إعادة انتخاب الرئيس - التي كانت غايتنا الرئيسة في البداية - فإن تأثيرها على المدى الطويل قلل من شأن رئاسته ومن مصداقيتها، وأبقى واشنطن عاجزة عن الانتقال إلى حقبة ما بعد الحرب الحزبية التي انغمست فيها على امتداد سنوات سابقة.

أما باتريك فيتزجيرالد، المستشار الخاص، فقد كان مصمماً على القيام بشيء واحد فقط - ألا وهو عمله. وكان هذا يعني أنه غير معني بالتجاذبات الحزبية، أو أي مواعيد مصطنعة من أجل الوصول إلى الحقيقة في ثقافة واشنطن التي تعوزها الحقيقة. ونظراً لكونه غير معروف خارج نطاق فريقه المكون من أعضاء حازمين في روحهم المهنية، فقد تم النظر في توجيه اتهامات بعرقلة سير العدالة لواحد على الأقل، أو ربما اثنين من مسؤولي البيت الأبيض.

ضمن إطار القضايا الكبيرة، لم تساعدنا حكاية التسريب في جهودنا التي نبذلها من أجل مواجهة التحديات في العراق، أو الوضع المتفجر في الشرق الأوسط، أو مصالحنا الأمنية هناك. ما فعلته هذه الحكاية هو أنها أسهمت في استمرار ثقافة الخداع المدمرة في واشنطن، والمتجذرة في مرتعها الخصب المتمثل في الحرب الحزبية التي يخوضها قادتنا المنتخبون في واشنطن. حدث كل هذا في وقت كان الجنود الأمريكيون، رجالاً ونساء يقاتلون خارج الحدود، ويأملون في العودة إلى الوطن يوماً ما، ويلتئم شملهم مع أحبائهم.

ولكن بالنسبة لنا، نحن المتواجدين في البيت الأبيض أثناء ذلك كله، فليس هناك ما نفعله سوى لوم أنفسنا على هذا الاهتمام الشعبي الذي أثارته قضية التسريب. ما يزال انعدام الصدق والصراحة والأمانة والاستقامة حتى يومنا هذا، يؤجج النار التي أشعلها منتقدونا، ويطرح أسئلة حول أمانة الرئيس واستقامته، وهي مزايا كانت يوماً ما، من بين أعظم الصفات التي يتحلى بها.

ضمن ذلك كله، ويا للمفارقة، أبقى البيت الأبيض بنجاح على واحدة من أكثر القضايا إحراجاً وأكثرها ضرراً بعيدة عن التمحيص، وهي القضية الأكبر التي تقع في قلب اللغط الدائر حول الكلمات الست عشرة: كيف استغل صانعو السياسة المعلومات الاستخباراتية حول العراق من أجل الترويج لقضية أن العراق يشكل تهديداً «خطيراً ومتصاعداً» بشكل يسوغ شن الحرب الاستباقية.

كانت الأسئلة المحيطة بالقضية الأكبر، أعظم من إدراك معنى اتخاذ القرار بغزو العراق، والدروس التي سيقدمها للتاريخ. إن تقصي هذه الأسئلة، بالإضافة إلى قرار الرئيس وكبار مستشاريه الهادف إلى تجنب أي نتائج محتملة للصدق والصراحة حولها، تقع أيضاً في قلب المفهوم الذي حرف الرئاسة عن مسارها، ومنعها من العودة إلى سكتها الصحيحة من جديد.

فبدلاً من الالتزام بالصدق والصراحة عندما كنا بأمس الحاجة إليهما وإلى استعمالهما لصالح الرئيس، فقد قرر تجنبهما خوفاً من أن يتسببا في ضرر سياسي له. وافقه مستشاروه على قراره هذا. وكانت نتيجة ذلك فقدانه لثقة الشعب؛ وأضحى هو رئيساً يتعلق بأهداب الاعتقاد أن التاريخ والأجيال القادمة سوف يتغاضون عن الخداع المتجذر في هذه المقاربة، ويلمّعُ إرثه لوقدر لرؤيته حول النجاح في العراق أن تتحقق في نهاية المطاف.

لكنني لم أرَ أي دلائل على هذا المنحى منذ شهور طويلة. إلا أنه وبالعودة إلى نهاية سنة 2004، كان الرئيس في طريقه لحفر اسمه في التاريخ بطريقة أخرى: عبر فوزه بجائزة الرئاسة لمرحلة ثانية.